ظاهرة التغيير الاجتماعي في الوطن العربي مقاربة إيبستيمولوجية للدكتور حسن حنفي

بقلم: أ. قرواز الدوادي

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص: تعتبر قضية التغيير الاجتماعي في نظر حسن حنفي من الأولويات لجهة الرقي الحضاري بواقعنا العربي، وهذا الاهتمام مشروط بالتنظير المباشر لهذا الواقع، بعد عيشه والشعور به، ثم محاولة فهمه وإدراك مكوناته. لذلك يدعو حنفي كل مفكر ومثقف عربي إلى ضرورة الوعي بمشكلات العصر، لإقامة نظريات وصياغات فكرية قادرة على تطوير الواقع العربي، وبالتالي الربط بين التراث الديني والتنمية، وبين اللاهوت والتغيير الاجتماعي. والأخذ بأسباب التقدم في مواجهة الركود الفكري والنهضة ضد توقف الحضارة عن مسيرتها؛ خاصة وأننا نعيش في مرحلة من البلادة الفكرية لم يشهد لنا التاريخ بمثلها. والتنظير للواقع، وفك أسرار الموروث والماضي والتحرر من سلطانهما؛ إذ لا سلطان إلا للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه.

الكلمات المفتاحية: التغيير، الوطن العربي، الفلسفة العربية، الأزمة الحضارية، النهضة.

Résumé: La question du changement social, au point de vue *critiquable* de (Hassan Hanafi), est une des priorités, en termes de progrès de la civilisation dans la réalité arabe. Cette attention est conditionnée par la théorisation directe de cette réalité, après l'avoir vécu, et l'avoir senti, et puis essayer de la comprendre et de saisir ses composants. Par conséquent, (Hanafi) appelle chaque penseur et cultivé arabe à la nécessité de prendre conscience des problèmes de l'époque, pour établir des théories et des formulations intellectuelles, capables de développer la réalité arabe et, par conséquent, lier le patrimoine religieux au développement, la théologie au changement social. Et prendre en pratique les causes du progrès en face de la stagnation intellectuelle, et celles de la renaissance, contre l'arrêt de la marche de la civilisation; d'autant plus que nous vivions dans un stade de matité intellectuelle, que l'histoire n'a jamais attesté pour nous. Et la théorisation de

la réalité, et à décoder les mystères du patrimoine, du passé, et se libérer de leurs prises; car il n'y a pas de pouvoir, sauf celui de l'esprit, et aucune autorité, sauf la nécessité de la réalité dans laquelle nous vivons.

تمهيد:

إذا كنا نلاحظ أوضاع العالم العربي والإسلامي تزداد تأزما في كل لحظة وحين فهذا لا ينبئ بخير، والأدهى أنّ الفلسفة العربية تحتاج اليوم-أكثر من أي وقت مضى- إلى مراجعة قراءاتها وتحليلاتها للكشف عن العجز الذي يلاحق عقلانيتها المعاصرة في مسايرة التطورات المتتالية لفهم ظروف الواقع، وكذا لمعالجة سر تصاعد مشكلات الحياة، بالاستعانة بكل ما هو جديد من اكتشافات في مجال العلم والمعرفة، كما فعل عظماء الفلسفة في التاريخ سواء القديم منه أو الحديث، وبخاصة لما جعلوا الفلسفة تراجع نفسها بروح نقدية لامتلاك الأفضل حسب مستجدات وتحديات كل عصر. وفي هذا السياق أمثلة كثيرة من سقراط إلى ديكارت، ومن أفلاطون إلى كانط، تعبّر كلها عن لحظات خاصة لإعادة تأسيس ضرورية في مسيرة الفلسفة لتتوجه أكثر فأكثر إلى قضايا الوجود ومشكلات الإنسان في الواقع بخاصة قضايا العصر وتحدياته. وهذا من باب أنّ الخطاب الفلسفي هو الخطاب العقلاني النقدي القابل للالتحام بقضايا العصر لفهم انعكاساتها وآثارها المستقبلية على الإنسانية، دون أن يبقى حبيس حصار الموضوعات التقليدية المستنفدة التي جعلت من الفلسفة بحثا يبتعد أكثر فأكثر عن حياتنا الراهنة وما تعانيه من هموم في ظل ما صار يعرف بفخ العولمة وتصادم المصالح، وصراع الشعوب والحضارات، وجلها من قضايا التغيير التي يشهدها المجتمع الإنساني والمجتمع العربي على وجه الخصوص. وهذا ما نسعى إلى تحليله في هذا المقال، فكيف كان موقف حسن حنفي من مشكلة التغيير الاجتماعي في الوطن العربي؟ وهل هناك مشاريع عربية معاصرة فيها من الأمل ما يساعدنا على تجاوز مثل هذه المشكلات التي فرضت نفسها على الأمة فأقعدتها عن كل أشكال النهوض والرقي الحضاري؟

– واقع التغيير الاجتماعي في الوطن العربي (دلالات الأزمة وتقديم البديل): يمكن للمطلع على أعمال الندوة الفلسفية[1] الخامسة عشر التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة والتي أشرف عليها حسن حنفي أن يلحظ مدى حرصه على استهجان نمط العقلانية الاستهلاكية الراكدة في الفكر العربي المعاصر، وذلك لعدم اهتمامها بواقع الإنسان العربي وما يواجهه من تحديات في الوقت الذي انشغلت فيه بحضارة الآخر وما ينجر عنها من أحكام خاصة، وأنّ ميزان القوى مازال في صالحها، هذا الميزان الذي لا يمكن أن يتغير إلا إذا تسلح الفكر العربي بسلاح النقد لتبديد كل الأحكام الشائعة التي مازالت تعطي حضارة المركز أكثر مما تستحق، وتمنح الأطراف أقل مما تستحق من الإنسانية والعقلانية والعلم والحضارة[2].

وإذا كان هذا حالنا، فذلك لأنه نتيجة حتمية لتمسكنا بثقافة التسليم والإيمان، وابتعادنا عن منهج النقد والتحليل في الواقع كأبعاد اجتماعية للفلسفة النقدية أو كما يسميها حنفي "الرؤية النقدية للعالم"، لأنه كما يقول "وبفضل النقد تحرر العقل من القطعية والمذهبية والأفكار المسبقة حتى ولو انتهى إلى الشك والنسبية واللاأدرية والعدمية. والذهن المفتوح خير من الذهن المغلق... النقد مرتبط بحياة الفكر، وعلاقته بالمجتمع، وتغيير الواقع إلى ما هو أفضل، فالفكر بطبيعته فكر حر حتى في أشد الظروف الاجتماعية والسياسية قهرا وتسلطا، والعقل بطبيعته يسأل قبل أن يجيب، ويتساءل قبل أن يستلهم، ويتشكك قبل أن يحكم، فالنقد هو مفتاح تقدم الفكر والمجتمع"[3]، وعليه فالنقد أساس

[1] هذه الندوة التي ترأسها حسن حنفي انعقدت بجامعة القاهرة سنة 2003 وكانت تحت عنوان "فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي"، وقد استهلها بمداخلة كان عنوانها: هل النقد وقف على الحضارة الغربية؟

[2] حسن حنفي "وآخرون"، **هل النقد وقف على الحضارة الغربية: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي المعاصر**، (أعمال الندوة الفلسفية 15)، ط1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005)، ص07.

[3] حسن حنفي "وآخرون"، **هل النقد وقف على الحضارة الغربية**، ص 8.

التغيير والتغيير أساس التقدم، لكن كيف يتم هذا النقد في نظر حسن حنفي باعتباره أرضية صلبة يستقر عليها كل عمل من أجل التغيير في الواقع المأزوم للأمة؟

أولا: أبعاد الأزمة ودلالاتها:

1- أزمة النقد في الواقع العربي المعاصر:

يركز حسن حنفي هنا على مسلمة مفادها أن النقد البنّاء شرط الإبداع، والإبداع شرط التقدم والنهضة، ويبرر ذلك باعتبار تاريخ الفكر البشري كما مثّلته الحضارات قديما وحديثا هو في أساسه تاريخ النقد، وهذا من باب اتخاذ النقد كأداة فعالة في تحريك التاريخ من مرحلة إلى أخرى.

إذاً فلا سبيل لفك حصار الزمن على الواقع العربي المعاصر إلا بالنقد كوسيلة للتحول والانتقال، ولهذا اهتم حنفي بتبيان حدود هذا الحصار بخاصة عندما يقول "ومازال الواقع العربي مغطى إما من الموروث القديم أو من الوافد الجديد في الفكر، أو من تسلط نظم الحكم في الواقع. ويظل هذا الغطاء قائما إن لم تبدأ حركة نقد جذري حتى ينزاح الغطاء ويخرج العرب خارج مسرح "البالون" ومن تحت القبة السماوية، ويحدث انكسار معرفي بين الأنا والواقع، ويحدث التساؤل، بدلا من الإجابة الجاهزة دون السؤال"[4].

وعلى الرغم من هذا الانكسار الذي نشعر به مع حسن حنفي في فكرنا العربي المعاصر إلا أنه يعطينا بعض الأمل في المشاريع العربية المعاصرة لبعض المفكرين، بخاصة نقد العقل العربي للجابري، أو نقد العقل الإسلامي لمحمد أركون، أو نقد الخطاب الديني لنصر حامد أبو زيد، أو تجديد الفكر العربي لزكي نجيب محمود.

وعلى المنوال نفسه توجد بعض الأمثلة الأخرى كما يشير المفكر، والتي تبشّر بالإقدام على حقبة جديدة من النقد هي في بواكيرها الأولى[5]، وهذا طبعا من دون أن ننسى"التراث

[4] حسن حنفي "وآخرون"، **هل النقد وقف على الحضارة الغربية**، ص 22.

[5] حسن حنفي "وآخرون"، **هل النقد وقف على الحضارة الغربية**، ص 24.

والتجديد" وهو المشروع الضخم الذي أسسه حسن حنفي نفسه في ما أسماه النقد الثوري؛ لهذا يقول تقديرا له، وعرفانا بفضله، واعترافا بأثره في الثقافة العربية، وبدوره في الفكر العربي المعاصر "نقد العقل العربي" باعتراف جميع المنصفين، هو أهم مشروع عربي معاصر ولا يأتي "التراث والتجديد" إلا في الدرجة الثانية بعده، وربما الثالثة بعد "نقد العقل الإسلامي" لثالثنا محمد أركون، وربما "من التراث إلى الثورة" لرابعنا الطيب تيزيني"[6].

ما يمكن فهمه من هذا النص هو أن حسن حنفي قد جعل مهمة فهم الواقع وتحليله ونقده، مهمة خاصة بالمفكرين لأنهم الأقدر على الحكم عليه وكشف حقيقته، فالمفكرون هم الذين يشهدون على عصرهم شهادة الحق، ليكونوا شهداء وشاهدين على عصرهم، وذلك عن طريق رسالة الفكر الموجهة للكشف عن حقيقة الواقع. وهنا يتساءل حنفي: ما هي رسالة الفكر حتى يكون شهادة على الواقع والعصر؟[7]. لقد أسهب كثيرا للإجابة عن هذا السؤال، بيد أنه يمكن تلخيص هذه الإجابة في النقاط التالية:

أ- تحليل وكشف الواقع: ويتم في نظره كما يلي[8]:

- رسالة الفكر ليست تغطية للواقع بعرض أكبر قدر من المعلومات عنه؛ فهو عمل يتسابق فيه العلماء الجهّال لتعريف الناس بما يجهلون بدعوى نشر الثقافة-لكن العلماء الحقيقيين والعلم له أهله- يقدمون العلم للذي يريده ويجتهد في تحصيله، فالعلم إذًا ليس هو المعلومات بل كيفية نشأتها في واقعها الخاص من غير خلق لواقع آخر مزيف يحولها إلى بضاعة يتاجر بها، لكن ما أسهل نقل المعلومات وما أصعب رؤية الواقع؛ خاصة إذا علمنا بأن الفكرة كالسكين، تنفذ إلى الواقع ولا تتراكم فوقه، لأن الواقع يتطلب تحليلا لا تفسيرا؛ فالمفسر يحرك الواقع بينما المحلل يسعى إلى تغييره.

---

[6] حسن حنفي وآخرون: **نقد العقل العربي في مرآة التراث والتجديد، التراث والنهضة، قراءات في أعمال محمد عابد الجابري**، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004)، ص 299.

[7] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ط1 (القاهرة: دار الفكر العربي، 1976)، ج1، ص 11.

[8] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 12 وما بعدها.

– إنّ رسالة الفكر لا تكمن في ترديد النظريات، بل في فحصها وتمحيصها وبيان مدى فعاليتها في بيئات مختلفة عن بيئتها الحضارية التي نشأت فيها، وهذا طبعا للتعبير عن الواقع بأسلوب مباشر تفهمه الجماهير كما هو الحال مع الوحي الذي جاء كحقيقة مطابقة للواقع وهو يتغير.

– ورسالة الفكر أيضا ليست بحثا نظريا خالصا، خاصة بالنسبة إلى مجتمعاتنا النامية التي يكاد يكون معدل التغيير لديها منعدما مقارنة بالمجتمعات المتطورة. لهذا يتعجب حنفي من العقلانية العربية التي تروّج لأحدث النظريات في مختلف ميادين الحياة، في حين تغمض العين عن الواقع وما يحدث فيه، وبالتالي فهي أحوج إلى التحليل المباشر للواقع، وإلى التغيير الفكري والاجتماعي، ما دامت الأفكار ليست أشياء مستقلة عن واقعها وإنما هي تصوير ووصف له؛ إذاً رسالة الفكر هي اتحاده بالواقع، فالواقع فكر والفكر هو التعبير عن الواقع في حركته المستمرة نحو المستقبل.

ب– تطوير الواقع: ويكون كما يلي[9]:

– لا يتحقق تغيير الواقع نحو الأفضل إلا بالتحليل الذكي الذي يقوم به بعض المفكرين والذي يتأسس على بيانات علمية هي نتائج التحليل المباشر للواقع، لا تضيع فيه الموضوعية مع الذاتية لأنها تعبر عن واقع فعلي. ومن هنا فرسالة الفكر لا تكمن في تبخير الواقع ولا في تفريغه من مضمونه، بل في إعطائه أكبر قدر من الأصالة والكثافة لدفعه إلى التعبير عن نفسه بصورة أشدّ وضوحا وأكثر جدية وحسما، وبالتالي أكبر قدر ممكن من الحقيقة عنه لتأصيل حركته التلقائية.

– مهمة الفكر الأساسية هي جعل الواقع في تبدّل دائم وتجاوز مستمر لحالة السكون والركود؛ ولكن من دون غرور ولا بدعة، أو تهور وشغب وإلا تحول المفكرون إلى حماة للأنظمة واستتباب الأمن؛ وبالتالي فرسالة الفكر هي تفجير الواقع بالبحث عن معوقات

[9] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 16 وما بعدها.

تقدمه وأسباب تطويره، وهي اللحظة الحاسمة في التاريخ والتي تعبّر عن مدى التحول والتغيير الذي يتجاوز فيه الواقع نفسه.

– كما أن رسالة الفكر ليست إشباع حاجات الواقع ورغباته، كما يفعل في النشاطات الزائفة، في الفن والإعلام، إنما مهمتهما كمهمة الفكر تماما وهي السمو بالواقع وتطويره، وخاصة في البيئات التي يكثر فيها الفن الرخيص وإضحاك الجماهير والسعي لإشباع الحاجات الشاذة، على الرغم من أن الوحي جاء مصدقا للطبيعة الراقية ومطورا لها.

– فرسالة الفكر إذاً هي الثورة[10] على الوضع القائم والمساهمة في تطويره لا تبريره، لأن التبرير نفاق تعودت السلطة والجماهير على سماعه، فهو خداع مزدوج بين المفكر والسلطة عندما يتخلى عن صفته كشاهد على العصر، ويساند السلطة التي يرفضها في قرارة نفسه، لأن رسالة الفكر هي نفي الوضع القائم من أجل تغييره وتطويره، وليس المقصود بالفكر هنا كل فكر، فالفكر الذي لا يتغير لا يكون فكرا، بل تبريرا قد أصبح جزءا من التاريخ. لعلّ هذا ما جعل المفكر ماركيوز يؤكد على أنّ رسالة الفكر هي رفض للوضع القائم وتجاوز تبرير وضعيته، خاصة إذا حدث التشابك في المجتمع وتأزمت الأوضاع والمشاعر، ولا يكون الحل وقتئذ إلا بالثورة على الواقع من أجل التغيير والتعبير عن المكبوت وازدواجية الشخصية والفكر والكلام.

ج– الأصالة والمعاصرة في الواقع: يعتقد حسن حنفي أنّ الأصالة والمعاصرة من المشكلات التي نعيشها اليوم في واقعنا العربي المعاصر، لأنها تبرز في حياتنا الأدبية والثقافية والاجتماعية تحت عنوان "القديم والجديد"؛ حيث لا يمكن أن نتحدث عن أحدهما دون الآخر، فالأصالة دون المعاصرة وقوع في التقليد، والاعتزاز بالقديم مظهر من مظاهر الانعزال عن الواقع وعدم الالتزام بقضايا العصر، والمعاصرة دون الأصالة وقوع في نرجسية المستقبل

[10] يقول حنفي"ليست الثورة فعلا متسرعا في صورة فرقعة فكرية أو قلبا للواقع رأسا على عقب عن طريق المؤامرات والانقلابات بل الثورة تطوير طبيعي له" حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 45.

التي لا يتحملها وجدان العصر الذي مازال محملا بتراث الماضي؛ لهذا يقول حنفي "فالأصالة والمعاصرة إذن مرتبطتان لأنهما تعبّران عن الصلة بين الفكر والواقع، فالأصالة هي الفكر على مستوى التاريخ، والمعاصرة هي الواقع على مستوى السلوك. الأصالة أساس الفكر، والمعاصرة إحساس بالواقع، والمشكلتان وجهتان لمنطق واحد وهو منطق التجديد الذي تعرضه الأصالة والمعاصرة على المستوى الأفقي والذي يعرضه الفكر والواقع على المستوى الرأسي، ومن ثمّ تصبح الأصالة والمعاصرة منطق الالتزام بقضايا العصر مع أكبر ضمان ممكن من حيث إمكانيات الحل والتطبيق"[11]. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماذا تعني الأصالة وماذا تعني المعاصرة، وما علاقتها بالواقع؟ لقد رفض حسن حنفي النظر إلى الأصالة على أنها تمسّك بالقديم والإبقاء عليه بأي ثمن، لمجرد الاعتزاز والفخر والتعصب، وكأن الأصالة لا تتغير في صورتها أو في مضمونها؛ وبالتالي الاقتراب من قضايا العصر من باب الانفعال لا غير.

كما لا تعني الأصالة في نظره ابتلاع الواقع والحدّ من تطويره أو النظر إليه في مرآة الماضي، وكأنّ الأصالة هي الوصاية على المعاصرة، وإعطاء الأولوية للفكر على حساب الواقع، وإنما الأصالة هي وسيلة لإدراك الواقع في كل أبعاده، فهي أساسا وقبل كل شيء وعي به وإتحاد معه؛ وبالتالي فهي رؤية صائبة للواقع باعتباره مرحلة من مراحل التاريخ، وهنا فقط تصبح الأصالة مرادفة للمعاصرة وإن كانت جذورها أعمق في التاريخ[12].

كذلك الأمر بالنسبة للمعاصرة فقد رفض حنفي أخذها بمعنى المحادثة التي هي مجرد نقل لكل ما هو حديث في الفكر والفن من غير تمثّل أو فهم أو نقد، فهي بذلك تعني التخلي عن الفكر والواقع معا. ولعلّ هذا ما جعل ثقافتنا تصاب بالركود والشلل لكونها أصبحت أقرب إلى المحادثة منها إلى المعاصرة. ولأنها أيضا تخلَّت عن واقعنا المعاصر وارتبطت بواقع المذاهب الفكرية والاتجاهات الفنية المنقولة بواقعها الخاص، فالمعاصرة إذاً نظرة علمية

[11] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص50.

[12] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص51.

وليست علوما وتكنولوجيا يرغب الكثير من مثقفينا في التمتع بمزاياها ونتائجها؛ وبالتالي فهي لا تعني التأنق والتهندم، بل معاناة الحياة اليومية التي تعانيها كافة الطبقات.

وعليه فالفهم السليم للمعاصرة هي كما يقول"إعطاء الأولوية للواقع على الفكر، حتى يصبح الفكر هو رؤية هذا الواقع نفسه، ويتم ذلك في قراءاتنا للنصوص الدينية أو للتراث القديم، فإذا كانت الأصالة هي تحويل الفكر إلى واقع، تكون المعاصرة هي تحويل الواقع إلى فكر... الاتحاد بالواقع والعيش على مستواه ورفض جميع صور الانعزالية والضمور في الثقافة والفن التي تبغي تملّق الواقع والتكسب منه والشهرة على حسابه، ثم التعالي عنه والترفع عليه. تنشأ المعاصرة من الإحساس بقضايا العصر والالتزام بها، والتي تتركز كلها حول قضية النمو أو التقدم وهو حق الواقع الذي يفرض صور فكره ويرفض ما عداها"[13].

إنه يجب علينا هنا طرح التساؤل التالي: هل الربط بين الأصالة والمعاصرة يعني التوفيق بينهما في الواقع –والذي يكون في الواقع أقرب إلى التلفيق–أم المساومة على أحدهما لحساب الآخر؟

في نظر حنفي المشكلة هنا تحتاج إلى الوعي النظري بتطور العصر، خاصة وأن منطق الأصالة والمعاصرة له مناهجه وطرقه وأساليبه وميادينه، وبالتالي فكل المحاولات التي لا تتم عن وعي بذلك تنتهي لا محالة إلى ضياع الأصالة والمعاصرة معا.

فالموضوعية إذن لا تنشأ إلا على أساس من إدراك الواقع العريض لكل ما فيه، من غير التحزب ولا التعصب في إعطاء الحلول الجذرية، ومهمة جيلنا كما يرى حنفي يجب أن لا تكتفي بتحليل القديم وفحصه ونقده وتقييمه، ولكن بإخضاعه لمناهج التحليل العلمية، ويترك الأجيال القادمة تأخذ على عاتقها إرساء أسس النظرة العلمية. فنحن مازلنا في مرحلة اكتشاف الذات، وقد تكون الأجيال القادمة أقدر منا على إرساء قواعد النهضة العلمية[14].

[13] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص52.

[14] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص53.

لهذا يقول "فنحن اليوم ننحو نحو العقلانية، ونحاول الخروج من عالم الأسطورة إلى عالم العقل، ومن نطاق الاشتباه والالتباس والغموض إلى نطاق الوضوح والتميز. إنّ ما نعانيه من سيادة الجانب الانفعالي في حياتنا المعاصرة يجد تخفيفا له في زيادة الجانب العقلي في وجداننا حتى يمكننا إقامة التوازن في حياتنا الثقافي[15].

ثانيا– البديل أو تجاوز الماضي واستشراف المستقبل:

إنّ أزمة التغيير للواقع الاجتماعي قضية فرضت نفسها على الفكر العربي المعاصر ولعل هذا ما جعل حنفي يؤكد أن **التراث والتجديد** قد جاء كرد فعل على هذه **الأزمة** نظرا لفشل محاولات كثيرة لإحداث هذا التغيير وخاصة بعد اصطدامها جميعا بقضية التراث كمخزون نفسي راسخ عند الجماهير يمس حياتهم ويتدخل في شقائهم أو سعادتهم، لهذا كما يقول حنفي "تجديد التراث هو دراسة للبعد الاجتماعي، فهو أدخل في علم الاجتماع الديني أو علم الاجتماع الحضاري، ومن ثم كان أحد مشاكل العلوم الإنسانية"[16]، ومن هنا فالحديث عن واقعنا الاجتماعي ومتطلباته في واقعنا المعاصر، هو في نظره إشارة إلى أوضاع اجتماعية معاشة، وأبنية نفسية تحدد الهوية اعتمادا على التحليل العلمي للواقع، من غير الوقوع في الانحراف والتبعية لمسار الحضارة الغربية وبيئتها أو الهروب إلى الماضي والتخلي عن معارك العصر والانصياع للعواطف القومية والنفاق والنرجسية والعجز[17].

وعلى هذا الأساس فقد رد حنفي أزمة التغيير الاجتماعي إلى اتجاهات ثلاثة موجودة على المستوى العملي وهي المسئولة عن هذه الأزمة، فكيف يرى ذلك يا ترى؟

1– أزمة التغيير بواسطة القديم: لقد رفض حسن حنفي بعض محاولات التغيير، ووصفها بالتكالب على قيم التراث القديم، خاصة وأنها تجاهلت الواقع وحاولت فرضها عليه فإن

[15] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص67.

[16] حسن حنفي، **التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم**، ط5 (بروت: المؤسسة الجامعية للنشر، 2002)، ص23.

[17] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 28.

قبلها فهو المجتمع المؤمن، وإن لم يقبلها فهو المجتمع الكافر الذي يجب الخروج عليه؛ والنتيجة في نظره الفشل المحتوم وقد برّر ذلك بالأسباب التالية[18]:

– إنّ أصحاب هذه النظرة تطاولوا على الواقع ولجئوا إلى الدفاع عن الله دون التفكير في التغيير الاجتماعي، مما جعل دعوتهم غير قادرة على ممارسة قضايا التغيير التي تحتاج إلى العلم دون الدين؛ لهذا السبب لم تستطع هذه المحاولات تفسير الإلهيات على أنها اجتماعيات.

– افتقار هذه الدعوة إلى التطور الفكري؛ لأنها لم تأخذ في الاعتبار التطورات الجديدة التي يتعرض لها الواقع مما جعلها حبيسة مرحلة معينة بلا تطوير.

– استمرار تعثر هذه المحاولات طالما أنه لا توجد لها إيديولوجية إسلامية خاصة واضحة المعالم يستطيع الواقع أن يعبّر فيها عن ذاته.

– رفض كل محاولات التجديد، واتهام أصحابها بالإلحاد والشيوعية والمادية والكفر على الرغم من تواجد الفكر الطبيعي في تراثنا القديم.

– التنازل عن الوعي الفكري والتمسّك بالرأي وسيادة التعصب والحمية الدينية؛ فالأيديولوجيا ضد القطعية تنظِّر للواقع وتسعى إلى تعديله طبقا لتطورات العصر من دون الانفعال والنقص في الوعي الفكري، وعدم الإحساس بالآخرين.

– محاولة تغيير الواقع بالقوة والغِلظة واتهام الجماهير، واستعمال العنف ضد الجماعات، ولكن لا أمل في تغيير الأوضاع الاجتماعية عن طريق العنف الثوري، خاصة في بيئة ترى نفسها أمة واحدة.

– مثل هذه الدعوات التغييرية أقرب إلى محاولات الانقلابات منها إلى تغيير اجتماعي حضاري بالفعل؛ لهذا كان السبب في فشلها اصطدامها مع السلطة واتهامها بالمؤامرات لقلب نظام حكمها، خاصة إذا اعتمدت على تنظيمات سرية مسلحة.

[18] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 37.

– اللجوء إلى تنظيم الجماهير في جماعات مغلقة ترفض الحوار؛ فهم وحدهم على حق والآخرون على باطل، وبالتالي التصلب في الممارسة والانغلاق على النفس.

– سرعة انشقاق الجماهير عليها لافتقارها إلى الطابع الديمقراطي في التعامل معهم وكأنهم مجرد أدوات لتحقيق وتنفيذ مطالبها.

– تركيزها على المحرمات وتشديدها في العقوبات، وجعل السلوك الإنساني تحقيقا للنواهي دون ذكر للمباحات، مما يولّد في الإنسان الخوف بدلا من الشجاعة، والإحجام بدلا من الإقدام، وكأن الإسلام لا يتحقق إلا بالقتل والرجم وقطع اليد.

2– أزمة التغيير بواسطة الجديد:

في اعتقاد حسن حنفي النتيجة نفسها مع أنصار التغيير بالجديد، ومحاولتهم سوف تنتهي إلى الفشل رغم اختلاف الأسباب، وهي كالآتي[19]:

– أزمة أنصار الجديد تبدأ من كثرة تشدقهم بألفاظ صعبة على الجمهور، وكأن ثورة التغيير الاجتماعي والسياسي، وحتى الاقتصادي والثقافي في حاجة ماسة إلى هذه الألفاظ، في حين الواقع في كثير من الأحيان يكون بديلا عن ذلك.

– التبعية شبه المطلقة لثقافة الغرب، وبالتالي الوقوع في فخ عالمية الثقافة والتنازل عن الشخصية والهوية، وفي نهاية المطاف الوقوع في التقليد الأعمى وأحيانا الانحطاط إلى درجة العمالة الفكرية والدفاع عن كل ما نشأ في الواقع الخاص للآخر من أفكار ونظريات نافعة كانت أم ضارة وكأنها صالحة لكل زمان ومكان، على الرغم من أنّ الفكر أسمى من أن يكون مجرّد متاع ينقل من بيئة إلى أخرى دون مراعاة الخصوصية والتراث القومي للجماهير.

– ضعف الاندماج مع الواقع والتهاون في التنظيم المباشر له. وبالتالي انعدام الرؤية المباشرة له والنظرة العلمية المستوحاة من ميدان الواقع باعتباره المخبر الذي تحلّل فيه النظريات طبقا لبناء الواقع ومعطياته.

[19] حسن حنفي، **التراث والتجديد**، ص 43-44.

– الاستيلاء على السلطة والقناعة المطلقة بأنها السبيل الأمثل لتغيير الواقع. والنتيجة حتما الاصطدام بالسلطة ذاتها والانعزال عن الجماهير، في حين أن الوحي لم يأت إجبارا للناس، بل كان تلبية لنداء الواقع ورغبة في التغيير.

– السرية في العمل وتجاهل الجماهير، مع العلم أنّ العمل السري هو عمل غير شرعي والحقيقة هي أنّ قضايا التغيير الاجتماعي ليست تلصصا على الناس.

– الاعتماد على العنف لحماية الدعوة، وبالتالي تجاهل الجماهير التي هي مضمون التغيير من جهة، والاصطدام بالسلطة والدعوات المعارضة من جهة أخرى، وهذا هو منبع الأزمة لكل من أنصار التغيير بالقديم أو الجديد[20].

– افتقار أنصار التغيير بالجديد إلى برنامج ثوري مبني على فحص الواقع وموجه إلى خدمته وتطويره يعبّر عن مصلحة الجماهير ويرضى به الجميع، وعليه فإنّ الواقع الثوري هو مصدر البرنامج وليست النظرية الثورية[21].

– عدم قدرتهم على المزاوجة بين الأيديولوجيا والأخلاق، مما دفع الجماهير التي تتأسى بالرسول (عليه الصلاة والسلام) وتتّبع سننه والمشبعة بقيم الحق والخير والأخلاق إلى النفور منهم فأصبحت دعوتهم غير قادرة على الاستيلاء عليهم، فتحولت إلى دعوة مساندة للسلطة ومبررة لأخطائها لكي تعطيها الشرعية الوطنية.

ويبقى الكل مخدوعا كما يؤكد حنفي "فالواقع الحي واقع الناس، واقع الجماهير قبل أن يكون هو الواقع المصمت، والواقع المصمت لا يتحول إلى واقع اجتماعي إلا من خلال سلوك الجماهير واتجاهاتها ومواقفها. الواقع الحي أبنية نفسية، وعقبات اجتماعية وتصورات للعالم وهو الواقع الجديد الذي تعطيه تجارب البلاد النامية"[22].

---

[20] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 281.

[21] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 269.

[22] حسن حنفي، **التراث والتجديد**، ص 53.

إن هذه الأسباب وغيرها هي التي جعلت حنفي لا يقبل بأسلوب أنصار التغيير بالجديد، ويمكن اختزالها في فكرة واحدة مفادها أن دعوى التغير هذه تدخل، ضمن محاولات التجديد القائمة على العقلنة من الخارج[23] التي تعبّر عن فكر منقول قلبا وقالبا، شكلا ومضمونا، حتى ولو ظهر في ثوب الثقافة الوطنية بزينة شرقية على واردات غربية من أجل حسن القبول. ونظرتهم هذه فيها إشارة إلى أن التطور لا يأتي إلا بفضل قوالب أو مناهج من ثقافة معاصرة هي الثقافة الغربية، وبالتالي فهذه الدعوة في نظره تسعى إلى تفريغ القديم من كل محتوى تقدمي ووصفه بالعجز عن مسايرة العصر الذي ينطوي على كل وسائل وأساليب التغيير[24].

3– أزمة التغيير بواسطة القديم والجديد:

إنّ أزمة التغيير مع أنصار هذا الأسلوب قد وصلت إلى حد الاستسلام، فهم في نظره زعموا التوفيق والمصالحة بين المحافظة والتقدمية فوقعوا في التلفيق والميوعة الفكرية، والنتيجة إذن تجرع مرارة الفشل بالمثل مع الفريقين السابقين. ويردّ ذلك إلى الأسباب الآتية[25]:

– افتقارهم لأساس نظري يؤسسون عليه التغيير الاجتماعي، وأطروحاتهم مجرد نوايا معلنة وعبارات خطابية جوفاء، وعواطف نبيلة بعيدة كل البعد عن تفسير القديم وفهمه والتنظير المباشر للواقع.

– نفور الجماهير من شعاراتها الرنانة بعدما أدركت أنها لا تهدف إلا لملئ فراغ أجهزة الإعلام ما دامت لا تشير إلى أي معنى أو تدل على أي مضمون.

[23] العقلنة من الخارج: عبارة تدل على أخذ مقومات العقلانية من بيئة ثقافية أجنبية، وهي من التغيرات كما يقول حفي التي استعملها الدكتور عبد الله العروي في كتابه العرب والفكر التاريخي.

[24] حسن حنفي، **التراث والتجديد**، ص 59.

[25] حسن حنفي، **التراث والتجديد**، ص 47.

– معاداة كل الدعوات الأخرى لدى أنصار القديم أو الجديد؛ فهي ترى نفسها مجموعة ممثلة للوسط وبعيدة عن كل تطرف خاصة عن السلطة، فهي جماعة الرضا بالواقع واللامبالاة والسلبية التامة[26].

– إتباع أسلوب الترقيع في عملية التغيير الاجتماعي، وهذا يعني الاهتمام بالصغائر بدلا من الكبائر، وتغيير الجزء وترك الكل، وتحريك السطح وترك الأعماق؛ فهي إذن دعوة لتحقيق التغيير الجزئي دون المساس بجوهر القضية والصالح العام[27].

– ومن هنا فإن التغيير في نظر هؤلاء يكمن في كيفية تحقيق التعايش مع السلطة والفوز بكرمها. فهو ليس تحقيقا لمطالب الجماهير بقدر ما هو قبول الناس بالطاعة للسلطة وبقدرتها على فعل كل شيء، يلجئون إليها في الخصومات والشدائد وحل المشكلات.

– وعلى أساس ما سبق ذكره يعتقد حنفي أنّ قضية التغيير الاجتماعي ليست مهمة جماعة دون أخرى، إنما هي حمل على الجيل كله، وهو مطالب بالبحث عن أساسها الشعوري أو كما يسميه هو التجديد باكتشاف الذاتية؛ وهي مهمة جيلنا في الاستفادة من التراث وتجديده طبقا للواقع المعاش وقضايا العصر.

استنتاج:

بناء على ما سبق ذكره وتحليله، يمكن القول بأنّ أهم قضية من قضايا العصر تتمثل أساسا في التغيير الاجتماعي وهي في نظر حسن حنفي من أولويات الاهتمام للرقي الحضاري بواقعنا العربي المعاصر، وهذا الاهتمام في نظره لا فائدة ترجى منه إذا لم يبلغ درجة التنظير المباشر للواقع، ولكن بعد عيشه والشعور به، ثم بعد ذلك محاولة فهمه وإدراك مكوناته، فنحن لا نحتاج للتعبير عنه إلى الإتيان بنظرية من هنا وفكرة من هناك، فلكل واقع خصوصياته وأفكاره حتى وإن كانت من تراثه القديم أو تراث الآخر المعاصر؛ فهي أفكار

[26] حسن حنفي، **قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر**، ص 177.

[27] حسن حنفي، **التراث والتجديد**، ص 48.

جاهزة لكنها تعمى عن فهم الواقع. إنها لم تولد فيه ولا يمكن أن تتعايش معه، كما هو الشأن بالنسبة للأفكار الأصيلة الصادقة النابعة من العيش معه والإحساس به، ومن دون تأثيرات مذهبية دخيلة عليه هي أقل عمقا واتساعا من الواقع نفسه بما يحمله من تناقضات، وطاقات، وإمكانيات يمكن أن تكون كفيلة بتغييره وتطويره إلى أفضل حال مقارنة بماضيه وحاضره ومستقبله المأمول.